لبنان ميشال شيحا

للدكتور جميل جبر رئيس نادي القلم

ميشال شيحا عظيمٌ من لبنان نفتقده اليوم أكثر من كل يوم كما يُفتقد البدرُ في الليلة الظلماء.

بجرأة المتعبّد الزاهد وبصيرته الوقادة وبُعد رؤياه جنّد ميشال شيحا قلمه لخدمة لبنان والقيم الانسانية التي شاء أن يجسّد.
كان اذا تناول في خواطره اليومية حدثاً عارضاً تجاوزه الى الثوابت التاريخية. نحن نقرأ الآن ما كُتب قبل نصف قرن ونقف خياله واقفاً أمامنا يحلل، يوجّه، يحذّر بأسلوبه الأنيق المنطقي الجذّاب.
كيف نظر هذا المفكّر الثاقب الفذّ الى لبنان في واقعه وتدبيره ومرتجاه؟

قال شيحا باختصار: لبنان على خريطة العالم بقعة صغيرة في موقع جغرافيّ مميّز عند مُلتقى القارات القديمة الثلاث. وهذا لا يعني أنه يكون رأس جسر متبادلٍ وحسب بل واحداً من مراقب العالم. وهذا ما جعله قبلة أطماع جيرانه والغزاة من كل صوب عبر تاريخه الطويل.
إنطلاقاً من هذا الواقع يجب على الشعب اللبناني جملةً أن يتقبّل نسباً يرقى الى ما هو أبعدُ بكثير من أن يتوقف عندها البعض متعسّفاً طلباً لتعريف سياسة من السياسات، لأن أيّ فتح جاء بعد فتوح لا يكفي لتغيير صورة شعب بين جيل وجيل، بل بين ألف من السنين سبقت وألف تلت. ويفترض هذا التقبّل حرصاً على التراث المميز، أساس من الهويّة بقدر ما يفترض الانفتاح على كل نسمة خير وحق وجمال بأكثر من لغة. العربية لغة رائعة وهي لغة الملايين من الناس ولا نكون نحن أنفسنا إن تخلّينا عن طموحنا إلى أن نظلّ سادتها. ولكن لا بدّ لبلادنا أن تنطلق بلغتين

بل تبلورت انسجاماً مع تاريخها لأن لبنان، حتى قبل اكتشاف الأبجدية نطق بلغات عدة. وإنه لمظهر من مظاهر التفوق.

هذا من حيث الواقع الجغرافي والتاريخي، أما بصدد الحاضر فقد رأى شيحا أن لبنان بلد لا يناسبه ركوب الرأس ولا مركب الانقلابات، لأنه موطن أقليات طائفية متشاركة تقتضي الاستقرار لكي تتفاعل فتزداد انصهاراً، وتفترض قيام مجلس تمثيلي يكون مقام لقاء وتوحيد بين الطوائف، فإن تقاعس مثل هذا المجلس عن أداء دوره حلت محله الزعامات الطائفية وعمت الفوضى . فلكي يستمر لبنان متماسكاً زاهراً لا بد من تمثيل صحيح للمجالس حتى لا يفقد الحكم شرعيته فتحل القوى غير النظامية محل الدولة. لذا اقتضت الضرورة رجالاً كلهم يتحلون بالخلق الرفيع والفكر الرفيع يدعمون الوحدة الوطنية ويحرصون حرصاً شديداً على الحريات التي هي أول ميزات لبنان حرصهم على رسالته التاريخية كصلة وصل بين الشرق والغرب.

وتتوقف شيحا عند صون كرامة الانسان وحقوقه وتطلعاته الى مستقبل أفضل، فيقول: مهمٌ ولا شك أن يتجهز لبنان تجهيزاً عصرياً ويزدهر عمرانه ويفسح له أن يتقدم مادياً ولكن مهمٌ أكثر أن يكون في لبنان انسان جدير بانسانيته، أن يستيقظ المواطن المنبطح ذلة فيقلع عن التزلف والاستعطاف والاستزلام وأن لا يخاف النائب من مجابهة الحكومة الباذلة عطاياها لأتباعها، ولا يؤثر الصحفي بعد اليوم السكوت لأن الصمت أوفر ربحاً من النقد السليم الجريء.

قدرُ لبنان أن يكون رائداً، لا تابعاً، أن يظل متماسكاً متضامناً في وحدة لا تقوى عليها النزعات العنصرية والنزوات الشخصية والمصالح الفردية. وأن يكون رحباً في الضيافة ضمن حدود مرسومة لا تحول الضيف غازياً، وقادراً أن يستلهم من مآسي ماضيه وأمجاده مسيرته التصاعدية.

أيها الكرام،

علمنا ميشال شيحا أن الحرية المسؤولة واجبة وجود لبنان في هذا الشرق

ولا يجوز في أي حال أن تقتصر على حرية القول وعلى حرية التمجيد بأسياد القرار والتسبيح بحمدهم صباحاً مساءً كأنّي هيكل الأوثان.

علّمنا أن العلاقات الروحية مصدرُ ثراءٍ في تراثنا الإنساني، تتوحّد باسم الله ولا تُفرّق ولا تُستغلّ في إثارة الغرائز البدائية.

علّمنا أنّ السياسة فنُّ رعاية وتوجيه نحو الأحسن لا منازعاتٌ عقيمة في سبيل اقتسام الغنائم وأنّ الوطنية كرامةٌ وعنفوانٌ لا تهافتٌ على الزحف الذليل في سبيل الوصول

علّمنا ان مصلحة لبنان فوق كل مصلحة والتفريطُ بها خيانة.

علّمنا أن الدولة سلطةٌ متّحدة تقوم بدور الضابط، بمثابة الأم الواعية الرؤوم لكلّ بنيها بالمساواة في الحقوق والواجبات لا مجموعةُ دويلات في خدمة اقطاع مُستحدث أو لمصلحة الغير على حساب الوطن.

علّمنا أن المؤسسات لا يختصرها أشخاص بل هي مراكز تقوم على الكفاءة والتجرّد تشدّها إدارة فاعلة سليمة لا تتحول الى مزارع محلية للمحاسيب يطيب فيها الهدر بدون حساب. والهدر في القاموس يعني إباحة الدماء بلا ثأرٍ ولا دِيّة، فهل أُبيحت دماء الشعب فداءً للمتاجرين في جنازة الكرامة الوطنية والعاملين على نشر الفساد.

لو عاد ميشال شيحا إلينا وشاهد ما آلت إليه القيم الوطنية لوجد نفسه غريباً في بلاده ولردّد مع جبران: لبنانكم أبناؤه يسيرون امام الجنازة مزمّرين راقصين. وهم أولئك العبيد الذين تبدّل الأيام قيودهم الصدئة بقيود لامعة فيظنون أنهم أصبحوا أحراراً مطلقين. أما أبناء لبناني فهم السائرون بأقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والإيمان، نحو لبنان الحرية والعدالة والانفتاح.

فيا ما أحوجنا الى تعاليمك، أيها المعلّم، هدايةً لنا على طريق الخلاص.

عاش لبنان العظيم، وشكراً